النظرة المسيحيّة للوحدة في مجتمع متعدّد الثقافات

- مساهمة القدّيس مكسيموس المعترف -

فهرس

مقدّمة

1. الكاتب ولاهوته
2. مشروع الوحدة الكونيّ- الاتّحادات الخمس:
   - أ. اتّحاد الرجل والمرأة
   - ب. اتّحاد الفردوس والمسكونة
   - ج. اتّحاد السماء بالأرض
   - د. اتّحاد المنظورات بغير المنظورات
   - ه. اتّحاد المخلوق بغير المخلوق
3. الوحدة الكنسيّة

خاتمة

مقدّمة

لحظت السنوات الأخيرة ومع بدايات الألفيّة الثالثة انشغالَ الفكر اللاهوتيّ بموضوع "العولمة"، وتباينت الآراء بين معترض وحذر أو موافق! والحقيقة، إنّه لواجب على الفكر اللاهوتيّ، ليكون لاهوتيّاً، أن يجيب على اللحظة المعيّنة من الزمن بإجابة تمثّل الإرادة الإلهيّة ، فيقدمّها للعالم ليحافظ بها عليه. ويسرّني أن أبدي إعجابي باختيار هذا الموضوع، الذي يشير إلى فهم للزمن الحاليّ ومسائله.

ليست العولمة هي المسألة بالعمق، ولكن مسحنة العالم ووحدته هي غايتنا المسيحيّة، وهنا العولمة يمكنها تكون الأداة أو نتركها فتصير العائق.

فرؤيتنا لمسحنة العالم تنطلق من وحدته، ولكن بالربّ. وهذا ليس وقفاً على دِين دون آخر ولا على حضارة دون أخرى. لا بدّ لنا من إيضاح مفاهيمنا المسيحيّة حول الإنسان ووحدته مع ذاته ومع العالم ومع الله، وعلينا إخراجها من لغتها الدينيّة الحصريّة والموجّهة لفئة محدّدة، لأنّها وديعة في تراثنا المسيحيّ يستحقّها كلّ إنسان. هناك إذن الحقيقة وهناك التعبير عنها. فالحقيقة هي كونيّة ومسكونيّة، أمّا التعبير فينتمي إلى الحضارات والأديان. تلك هي واحدة وهذه متنوعة.

لذلك إنّ أكبر إساءة إلى حقائقنا المسيحيّة هي أن نأسرها في لغتنا الدينيّة التي لا يفهمها سوانا، أو حتّى ليس جميعُنا بل بعضٌ من المختصّين بيننا. إنّ كلمات مثل: "الخلاص، والفداء والتألّه"، هي كلمات تخصّ كلّ من الله والإنسان والكون، لذلك فهي تخصّ كلّ إنسان وليس ديناً من الأديان فقط. وهنا، برأينا، تشكّل رؤيتنا المسيحيّة لهذه الأمور، وبتعابيرها المختلفة، الرؤيا الأدق والأعمق.

لهذا تمّ اختيارنا للقدّيس مكسيموس المعترف الذي يتكلّم عن لاهوت الكنيسة والإنسان ليس من نظرة "دينيّة"- إن صحّ التعبير- ولكن عن تلك العلاقة بين الله والإنسان والعالم. إنّ تحقيق هذه العلاقة المطلوبة بين الله والإنسان له ساحة هي العالم، وله أداة أو طريقة هي الكنيسة. قد نحتاج مرّات عديدة أن نشرح معنى الكنيسة هذا في تقليدنا الصافي، بعد أن قزّمته النظريّات الدينيّة وجعلته مجرد نظام (System) أو مؤسّسة أو مدرسة أو بشارة أو عقيدة. الكنيسة في تقليدنا الأرثوذكسيّ تتحقّق في "الليتورجيا" أي "عمل الشعب"، عمل الإنسان، وهذا العمل هو الليتورجيا، التي لا تنحصر أبداً بالصلوات أو الطقوس. وعمل الكنيسة في العالم هو أن تصير عالم العالم، أو أن يصير العالمُ كنيسةً، أي أن يأتي ملكوت الله ويصير "الله الكلّ للكلّ"، عندها يتّحد الكلّ فيه وبه.

إنّ يسوع المسيح ليس شخصاً يخص المسيحيّين فقط، وإن كانوا هم أكثر مَن يتكلّم عنه. وإنّ تقليدنا الشريف والعريق ليس إرثاً لنا، وإنْ كان محفوظاً في كنيستنا. إنّ المسيحيّة رسالة كونيّة بين الله والإنسان، نحن مجرّد خدّامٍ فيها ورسلٍ لها نتمّم عمل يسوع في الكنيسة التي أسّسها. لم يرى قدّيسونا أنفسهم أبناء أمة أو طائفة أو قوميّة أو دِين الخ... بل "أبناء الله". ولم يتكلّموا عن ديانة بل عن "حياة". لهذا تعليمهم ليس لفئة بل للإنسان. قد تكون لغتهم من لون ما لكن هدفهم هو "حياة الإنسان"، التي جاء يسوع ليعطيها. وهذا ما سنجده فيما يلي عند القدّيس مكسيموس المعترف في رؤيته لوحدة الإنسانيّة مع ذاتها والعالم والله.

القدّيس مكسيموس أب شرقيّ من القرن السابع، وهو كتابيّ له مؤلّفات عديدة في تفسير آيات الكتاب المقدّس، وعقائديّ، أي اهتمّ بتحديد التعبير الأدقّ لتفسير الإيمان، وبالعكس لم يقبل بأيّ بتعبير يسيء للحياة. إنّه ميستيكيّ يقرأ الكتاب والتقليد بالعمق "بالحقّ والروح". بذلك يصير فعلاً "مسكونيّاً"، أي يمسّ بتعاليمه الإنسان وليس فئة من الأديان. ويتحرّر بعمقه هذا من حدود اللغات والحضارات وقيودها الأدبيّة والتاريخيّة. إنّه يمسّ الخبرة الإنسانيّة الإلهيّة ، التي يمكنها أن تكون مشتركة عند كلّ مَن هو "على صورة الله ومثاله".

إنّنا نؤمن أنّ اللاهوت ليس مسألة فلسفيّة، وكذلك العقائد. بل بالأحرى اللاهوت هو علم ربط الإنسان بالله، ولذلك هو فنّ الفنون وعلم العلوم. وهكذا نؤمن أنّ تقدمة رؤية القدّيس مكسيموس "للوحدة الكونيّة"، بين الإنسان وذاته والعالم والله، ستقدّم نصيحة هامّة لمستقبل الإنسانيّة جمعاء ولتوجيه عمل الكنيسة في العالم وضمانة صدق رسالتها، الرسالة التي نسيء أحياناً إليها فنؤخّرها أو نفسدها، بسبب من معرفتنا المحدودة عن سرّها.

سنبدأ مداخلتنا هذه بتوضيح صغير عن القدّيس ولاهوته، بمقدار ما يخصّ موضوعنا خاصّة، ثم سنستخدم من كتاباته أهمّ المقاطع التي تخدم موضوعنا، وسنجدها في كتابه "مستاغوجيا"، الفصول ٢٣ و٢٤ وفي مقالته "في أسئلة مختلفة" [PG 91, 1305-1308].

هل التعدديّة تمنع الوحدة؟ أم الوحدة لا تقبل التعدديّة، بل تصهر كلّ شيء بالآخر؟ وهل الحقيقة الإنسانيّة العميقة، وتلك العلاقة للإنسان مع ذاته والعالم أمام الله، هي ممكنة لكلّ إنسان وبطرق عديدة ومتنوعة تقبل تنوّع الحضارات دون أن تخسر حقيقة الروح؟ وأخيراً إذا كان لا بدّ من انفتاح الكنيسة على التعدديّة فكيف نحافظ على "الملح" الذي فيها من خطر علمنتها؟ كلّها أسئلة تجيب عليها بطريقة أو أخرى خمسةُ مشاريع إنسانيّة يحقّق في الوحدة للقدّيس مكسيموس المعترف.